

(سورة يونس)

مقدمة تفسير سورة يونس

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يونس مكية وآياتها تسع ومئة

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ {1} أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا
أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا
أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا
لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ {2}

أما الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم الكلام عليها في أوائل سورة البقرة وقال أبو الضحى عن بن عباس في قوله تعالى (الر) أي أنا الله أرى وكذلك قال الضحاك وغيره (تلك آيات الكتاب الحكيم) أي هذه آيات القرآن المحكم المبين وقال مجاهد (الر تلك آيات الكتاب الحكيم) وقال الحسن التوراة والزبور وقال قتاده (تلك آيات الكتاب) قال الكتب التي كانت قبل القرآن وهذا القول لا أعرف وجهه ولا معناه وقوله (أكان للناس عجا)

الآية يقول تعالى منكرا على من تعجب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قولهم (أبشر يهدوننا) وقال هود وصالح لقومهما (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم) وقال تعالى مخبرا عن كفار قريش أنهم قالوا (أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب) وقال

الضحاك عن بن عباس لما بعث الله تعالى محمدا ﷺ رسولا أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم فقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد قال فأنزل الله عز وجل (أكان للناس عجا) الآية وقوله (أن لهم قدم صدق عند ربهم) اختلفوا فيه فقال علي بن أبي طلحة عن بن عباس في قوله (وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق) يقول سبقت لهم السعادة في الذكر الأول وقال العوفي عن بن عباس (أن لهم قدم صدق عند ربهم) يقول أجرا حسنا بما قدموا وكذا قال الضحاك والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهذا كقوله تعالى (لينذر بأسا

شديدا) الآية وقال مجاهد (أن لهم قدم صدق عند ربهم)
قال الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقهم

وتسبيحهم قال ومحمد صلى الله عليه وسلم يشفع لهم وكذا قال زيد بن

أسلم ومقاتل بن حيان وقال قتادة سلف صدق عند ربهم

واختار بن جرير قول مجاهد أنها الأعمال الصالحة التي

قدموها كما يقال له قدم في الإسلام كقول حسان

لنا القدم العليا إليك وخلفنا لأولنا في طاعة الله تابع

وقول ذي الرمة لكم قدم لا ينكر الناس أنها مع الحسب

العادي طمت على البحر

وقوله تعالى (قال الكافرون إن هذا لساحر مبين) أي مع

أنا بعثنا إليهم رسولا منهم رجلا من جنسهم بشيرا ونذيرا)

قال الكافرون إن هذا لساحر مبين) أي ظاهر وهم

الكاذبون في ذلك

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ

شَفِيعٍ

إِلَّا مَن بَعْدَ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ {3}

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه وأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام قيل كهذه الأيام وقيل كل يوم كالف سنة مما تعدون كما سيأتي بيانه ثم استوى على العرش والعرش أعظم المخلوقات وسقفها قال بن أبي حاتم حدثنا حجاج بن حمزة حدثنا أبو أسامة حدثنا إسماعيل بن أبي خالد قال سمعت سعدا الطائي يقول العرش ياقوته حمراء وقال وهب بن منبه خلقه الله من نوره وهذا غريب وقوله (يدبر الأمر) أي يدبر الخلائق (لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض) ولا يشغله شأن عن شأن ولا تغلظه المسائل ولا يتبرم بإلحاح الملحّين ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير في الجبال والبحار والعمران والقفار (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) الآية (وما

تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا
رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) وقال الدراوردي عن
سعد بن إسحاق بن كعب أنه قال حين نزلت هذه الآية (إن
ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض) الآية لقيهم ركب
عظيم لا يرون إلا أنهم من العرب فقالوا لهم من أنتم قالوا
من الجن خرجنا من المدينة أخرجتنا هذه الآية رواه بن أبي
حاتم وقوله (ما من شفيع إلا من بعد إذنه) كقوله تعالى
(من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) وكقوله تعالى (وكم من
ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن
يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وقوله (ولا تنفع الشفاعة
عنده إلا لمن أذن له) وقوله (ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا
تذكرون) أي أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له (أفلا
تذكرون) أي أيها المشركون في أمركم تعبدون مع الله
إلها غيره وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق كقوله تعالى
(ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) وقوله (قل من رب
السماوات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل
أفلا تتقون) وكذا الآية التي قبلها والتي بعدها

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعَدَّ اللَّهُ حَقّاً إِنَّهُ
يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ {4}

يخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة لا يترك منهم
أحدا حتى يعيده كما بدأه ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق
كذلك يعيده (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه
(ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) أي
بالعدل والجزاء الأوفى (والذين كفروا لهم شراب من
حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) أي بسبب كفرهم
يعذبون يوم القيامة بأنواع العذاب من سموم وحميم وظل
من يحموم (هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله
أزواج) (هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون
بينها وبين حميم آن)

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ

ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ

وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ {5}

إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ

اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ {6}

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياءً وجعل شعاع القمر نورا هذا فن وهذا فن آخر ففاوت بينهما لئلا يشتبهها وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل وقدر القمر منازل فأول ما يبدو صغيرا ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر كقوله تعالى (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) وقوله تعالى (والشمس والقمر حسبانا) الآية وقوله في هذه الآية الكريمة (وقدره) أي القمر (منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) فبالشمس تعرف الأيام وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام (ما خلق الله ذلك إلا بالحق) أي لم

يخلقه عبثا بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة كقوله تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) وقال تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) وقوله (نفصل الآيات) أي نبين الحجج والأدلة (لقوم يعلمون) وقوله (إن في اختلاف الليل والنهار) أي تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا وإذا ذهب هذا جاء هذا لا يتأخر عنه شيئا كقوله تعالى (يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا) وقال (لالشمس ينبغي لها أن تدرك القمر) الآية وقال تعالى (فالق الإصباح وجعل الليل سكنا) الآية وقوله (وما خلق الله في السماوات والأرض) أي من الآيات الدالة على عظمته تعالى كما قال (وكأين من آية في السماوات والأرض) الآية وقوله (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) وقال (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض) وقال (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف

الليل والنهار لآيات لأولي الألباب) أي العقول وقال ها هنا
(لآيات لقوم يتقون) أي عقاب الله وسخطه وعذابه

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا
بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ {7} أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ

النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ {8}

يقول تعالى مخبرا عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله
يوم القيامة ولا يرجون في لقاءه شيئا ورضوا بهذه الحياة
الدنيا واطمأنت إليها نفوسهم قال الحسن والله مازينوها
ولا رفعوها حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله
الكونية فلا يتفكرون فيها والشرعية فلا يأترون بها فإن
ماواهم يوم معادهم النار جزاء على ماكانوا يكسبون في
دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام مع ما هم فيه من الكفر
بالله ورسوله واليوم الآخر

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ

تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ {9} دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ

اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ

(10 9 10)

هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وامتثلوا ما أمروا به فعملوا الصالحات بأنه سيهديهم بإيمانهم يحتمل أن تكون الباء ها هنا سببية فتقديره بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم حتى يجزوه ويخلصوا إلى الجنة ويحتمل أن تكون للإستعانة كما قال مجاهد في قوله (يهديهم ربهم بإيمانهم) قال يكون لهم نورا يمشون به وقال بن جريج في الآية يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره يعارض صاحبه ويبشره بكل خير فيقول له من أنت فيقول أنا عمك فيجعل له نوره من بين يديه حتى يدخله الجنة فذلك قوله تعالى (يهديهم ربهم بإيمانهم) والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة فيلزم صاحبه ويلاذه حتى يقذفه في النار وروي نحوه عن قتادة مرسلا فالله أعلم وقوله (دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب

العالمين) أي هذا حال أهل الجنة قال بن جريج أخبرت بأن قوله (دعواهم فيها سبحانك اللهم) قال إذا مر بهم الطير يشتهونه قالوا سبحانك اللهم وذلك دعواهم فيأتيهم الملك بما يشتهونه فيسلم عليهم فيردون عليه فذلك قوله (وتحيتهم فيها سلام) قال فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم فذلك قوله (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) وقال مقاتل بن حيان إذا أراد أهل الجنة أن يدعوا بالطعام قال أحدهم (سبحانك اللهم) قال فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم مع كل خادم صحيفة من ذهب فيها طعام ليس في الأخرى قال فيأكل منهن كلهن وقال سفيان الثوري إذا أراد أحدهم أن يدعو بشيء قال (سبحانك اللهم) وهذه الآية فيها شبه من قوله (تحيتهم يوم يلقونه سلام) الآية وقوله (لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما) وقوله (سلام قولا من رب رحيم) وقوله (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم) الآية وقوله (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) هذا فيه دلالة على إنه تعالى هو المحمود أبدا المعبود على طول المدى

ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره وفي ابتداء كتابه وعند ابتداء تنزيله حيث يقول تعالى (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب) (الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض) إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها وإنه المحمود في الأولى والآخرة في الحياة الدنيا وفي الآخرة في جميع الأحوال ولهذا جاء في الحديث إن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تزايد نعم الله عليهم فتكرر وتعاد وتزداد فليس لها انقضاء ولا أمد فلا إله إلا هو ولا رب سواه

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ

اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ

لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ { 11 }

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم في الشر في حال ضجرهم وغضبهم وإنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك فلماذا لا يستجيب لهم والحالة هذه لطفًا ورحمة كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم أو لأولادهم

بالخير والبركة والنماء ولهذا قال (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم) الآية أي لو استجاب لهم كلما دعوه به في ذلك لأهلكهم ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك كما جاء في الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده حدثنا محمد بن معمر حدثنا يعقوب بن محمد حدثنا حاتم بن إسماعيل حدثنا يعقوب بن مجاهد أبو حذرة عن عبادة بن الوليد حدثنا جابر قال قال رسول الله ﷺ لا تدعوا على أنفسكم لا تدعوا على أولادكم لا تدعوا على أموالكم لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم ورواه أبو داود 1532 من حديث حاتم بن إسماعيل به وقال البزار وتفرد به عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت الأنصاري لم يشاركه أحد فيه وهذا كقوله تعالى (ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير) الآية وقال مجاهد في تفسير هذه الآية (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير) الآية هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه اللهم لا تبارك فيه والعنه فلو يعجل لهم

الإستجابة في ذلك كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم

وَإِذَا مَسَّ

الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا

عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ

لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {12}

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الشر كقوله وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض (أي كثير وهما في معنى واحد وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها وأكثر الدعاء عند ذلك فدعا الله في كشفها ورفعها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه وفي جميع أحواله فإذا فرج الله شدته وكشف كربته أعرض ونأى بجانبه وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء (مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه) ثم ذم تعالى من هذه صفته وطريقته فقال (كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد فإنه مستثنى من ذلك كقوله تعالى (إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات) وكقول رسول

الله ﷺ عجا لأمر المؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرا له إن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له وإن أصابته سراء فشكر كان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمنين م

2999

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ

مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ {13} ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ {14}

أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاءوهم به من البينات والحجج الواضحات ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم وأرسل إليهم رسولا لينظر طاعتهم له وإتباعهم رسوله وفي صحيح مسلم 2742 من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد قال قال رسول الله ﷺ إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف

تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء وقال بن جرير حدثني المثنى حدثنا زيد بن عوف أبو ربيعة فهد أنبأنا حماد عن ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى إن عوف بن مالك قال لأبي بكر رأيت فيما يرى النائم كأن سببا دلى من السماء فانتشط رسول الله ﷺ ثم أعيد فانتشط أبو بكر ثم ذرع الناس حول المنبر ففضل عمر بثلاث أذرع حول المنبر فقال عمر دعنا من رؤياك لا أرب لنا فيها فلما استخلف عمر قال يا عوف رؤياك قال وهل لك في رؤياي من حاجة أولم تنتهرني قال ويحك إني كرهت أن تنعى لخليفة رسول الله ﷺ نفسه فقص عليه الرؤيا حتى إذا بلغ ذرع الناس إلى المنبر بهذه الثلاث الأذرع قال أما إحداهن فإنه كان خليفة وأما الثانية فإنه لا يخاف في الله لومة لائم وأما الثالثة فإنه شهيد قال فقال يقول الله تعالى (ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) فقد استخلفت يا بن أم عمر فانظر كيف تعمل وأما قوله فإنني لا أخاف في

الله لومة لائم فيما شاء الله وأما قوله (شهيد) فأنى لعمر
الشهادة والمسلمون مطيفون به
وَإِذَا تُلِّيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ
لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي
أَنْ أُبَدَّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي
أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ { 15 } قُلْ لَوْ شَاءَ
اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ
فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ { 16 }


يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركي قريش الجاحدين
المعرضين عنه إنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله
وحججه الواضحة قالوا له انت بقرآن غير هذا أي رد هذا
وجئنا بغيره من نمط آخر أو بدله إلى وضع آخر قال الله
تعالى لنبيه ﷺ (قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي)
أي ليس هذا إلي إنما أنا عبد مأمور ورسول مبلغ عن الله
(إن أتبع إلا ما يوحى إلي إنى أخاف إن عصيت ربي عذاب

يوم عظيم) ثم قال محتجا عليهم في صحة ما جاءهم به
(قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به) أي هذا إنما
جئتمكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته
والدليل على إني لست أتقوله من عندي ولا افتريته إنكم
عاجزون عن معارضته وإنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ
نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عز وجل لا تنتقدون علي
شيئا تغمصوني به ولهذا قال (فقد لبثت فيكم عمرا من
قبله أفلا تعقلون) أي أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق
من الباطل ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان
ومن معه فيما سأله من صفة النبي ﷺ قال هرقل لأبي
سفيان هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال قال
أبو سفيان فقلت لا وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة
وزعيم المشركين ومع هذا اعترف بالحق والفضل ما
شهدت به الأعداء

فقال له هرقل فقد أعرف إنه لم يكن ليدع الكذب على
الناس ثم يذهب فيكذب على الله وقال جعفر بن أبي

طالب للنجاشي ملك الحبشة بعث الله فينا رسولا نعرف
صدقه ونسبه وأمانته وقد كانت مدة مقامه عليه السلام
بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة وعن سعيد بن المسيب
ثلاثا وأربعين سنة والصحيح المشهور الأول
فَمَنْ أَظْلَمُ


مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ
لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ {17}

يقول تعالى لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراما (ممن
افترى على الله كذبا) وتقول على الله وزعم أن الله
أرسله ولم يكن كذلك فليس أحد أكبر جرما ولا أعظم ظلما
من هذا ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء فكيف يشتبه
حال هذا بالأنبياء فإن من قال هذه المقالة صادقا أو كاذبا
فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما
هو أظهر من الشمس لمن شاهدتهما أظهر من الفرق بين  وبين
مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت

الضحى وبين نصف الليل في حندس الظلماء فمن شيم
كل منهما وأفعاله وكلامه يستدل من له بصيرة على صدق
محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب وسجاح والأسود العنسي
قال عبد الله بن سلام لما قدم رسول الله ﷺ المدينة
إنجفل الناس فكنت فيمن إنجفل فلما رأيته عرفت أن
وجهه ليس بوجه رجل كذاب قال فكان أول ما سمعته
يقول يا أيها الناس أفسحوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا
الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام ولما
وفد ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد
بن بكر قال لرسول الله فيما قال له من رفع هذه السماء
قال الله قال ومن نصب هذه الجبال قال الله قال ومن
سطح هذه الأرض قال الله قال فبالذي رفع هذه السماء
ونصب هذه الجبال وسطح هذه الأرض أله أرسلك إلى
الناس كلهم قال اللهم نعم ثم سأله عن الصلاة والزكاة
والحج والصيام ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين ويحلف

له رسول الله ﷺ فقال له صدقت والذي بعثك بالحق لا
أزيد على ذلك ولا أنقص فاكتفى هذا الرجل بمجرد هذا وقد
أيقن بصدقه صلوات الله وسلامه عليه بما رأى وشاهد من
الدلائل الدالة عليه وقال حسان بن ثابت
لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر
وأما مسيلمة فمن شاهده من ذوي البصائر علم أمره
لامحاله بأقواله الركيكة التي ليست بفصيحة وأفعاله غير
الحسنة بل القبيحة وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم
الحسرة والفضيحة وكم من فرق بين قوله تعالى (الله لا
إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم) إلى آخرها
وبين قول مسيلمة قبحه الله ولعنه يا ضفدع بنت ضفدعين
نقي كم تنقين لالماء تكدرين ولاالشارب تمنعين وقوله
قبحه الله لقد أنعم الله على الحبلى إذ أخرج منها نسمة
تسعى من بين صفاق وحشى وقوله خلدته الله في نار
جهنم وقد فعل الفيل وما أدراك ماالفيل له خرطوم طويل
وقوله أبعده الله عن رحمته والعاجنات عجنا والخابزات
خبزا واللاقمات لقما إهالة وسمنا إن قريشا قوم يعتدون

إلى غير ذلك من الخرافات والبهذيان التي يأنف الصبيان أن يتلفظوا بها إلا على وجه السخرية والإستهزاء ولهذا أرغم الله أنفه وشرب يوم حديقة الموت حتفه ومزق شمله ولعنه صحبه وأهله وقدموا على الصديق تائبين وجاءوا في دين الله راغبين فسألهم الصديق خليفة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ورضي عنه أن يقرأوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة لعنه الله فسألوه أن يعفيهم من ذلك فأبى عليهم إلا أن يقرأوا شيئاً منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس فيعرفوا فضل ما هم عليه من الهدى والعلم فقرأوا عليه من هذا الذي ذكرناه وأشباهه فلما فرغوا قال لهم الصديق رضي الله عنه ويحكم أين كان يذهب بعقولكم والله إن هذا لم يخرج من إل وذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة وكان صديقاً له في الجاهلية وكان عمرو لم يسلم بعد فقال له مسيلمة ويحك يا عمرو ماذا أنزل على صاحبكم يعني رسول الله ﷺ في هذه المدة فقال لقد سمعت أصحابه يقرأون سورة عظيمة

قصيرة فقال وماهي فقال (والعصر إن الإنسان لفي
خسر) إلى آخر السورة ففكر مسيلمة ساعة ثم قال وأنا
قد أنزل علي مثله فقال وماهو فقال ياوبر ياوبر إنما أنت
أذنان وصدر وسائرک حفر نقر كيف ترى يا عمرو فقال له
عمرو والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب فاذا كان هذا من
مشرك في حال شركه لم يشتبه عليه حال محمد 
وصدقه وحال مسيلمة لعنه الله وكذبه فكيف بأولي البصائر
والنهي وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجى
ولهذا قال الله تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله
كذبا أو قال أوحى إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل
مثل ما أنزل الله) وقال في هذه الآية الكريمة (فمن أظلم
ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح
المجرمون) وكذلك من كذب بالحق الذي جاءت به الرسل
وقامت عليه الحجج لا أحد أظلم منه كما في الحديث أعتى
الناس على الله رجل قتل نبيا أو قتله نبي

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا
عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا
فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ { 18 } وَمَا كَانَ
النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
{19}

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره
ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله فأخبر تعالى
أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئاً ولا يقع شيء مما يزعمون
فيها ولا يكون هذا أبداً ولهذا قال تعالى (قل أتنبئون الله بما
لا يعلم في السماوات ولا في الأرض) وقال بن جرير معناه
أتخبرون الله بما لا يكون في السماوات ولا في الأرض ثم
نزه نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم فقال (سبحانه
وتعالى عما يشركون) ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث

في الناس كائن بعد أن لم يكن وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام قال بن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ثم وقع الإختلاف بين الناس وعبدت الأصنام والأنداد والأوثان فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة) وقوله (ولولا كلمة سبقت من ربك) الآية أي لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود لقضي بينهم فيما اختلفوا فيه فأسعد المؤمنين

والكافرين

وأعنت

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا

الْعَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَضِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ {20}

أي ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون لولا أنزل على محمد آية من ربه يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة أو أن يحول لهم الصفا ذهبا أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهارا أو نحو ذلك مما الله عليه قادر ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله كما قال تعالى (تبارك الذي إن

شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار
ويجعل لك قصورا بل كذبوا بالساعة واعتدنا لمن كذب
بالساعة سعييرا) وكقوله (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا
أن كذب بها الأولون) الآية يقول تعالى إن سنتي في خلقي
أني إذا آتيتهم ما سألوا فان آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة
ولهذا لما خير رسول الله ﷺ بين إعطائهم ما سألوا فان
آمنوا وإلا عذبوا وبين إنظارهم اختار إنظارهم كما حلم
عنهم غير مرة رسول الله ﷺ ولهذا قال تعالى إرشادا لنبية
إلى الجواب عما سألوا (فقل إنما الغيب لله) أي الأمر
كله لله وهو يعلم العواقب في الأمور (فانتظروا إني معكم
من المنتظرين) أي إن كنتم لا تؤمنون حتى تشهدوا ما
سألتم فانتظروا حكم الله في وفيكم هذا مع أنهم قد
شاهدوا من آياته ﷺ أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم
إلى القمر ليلة إبداره فانشق اثنين فرقة من وراء الجبل
وفرقة من دونه وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما


سألوا ومالم يسألوا ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك
استرشادا وثبتا لأجابهم ولكن علم أنهم إنما يسألون عنادا
وتعنتا فتركهم فيما رابهم وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد
كقوله تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون
ولو جاءتهم كل آية) الآية وقوله تعالى (ولو أننا نزلنا إليهم
الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما
كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) الآية ولما فيهم من المكابرة
كقوله تعالى (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء) الآية وقوله
تعالى (وإن يروا كسفا من السماء ساقطا) الآية وقال
تعالى (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم
لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) فمثل هؤلاء أقل
من أن يجابوا إلى ما سألوا لأنه لافائدة في جوابهم لأنه دائر
على تعنتهم وعنادهم لكثرة فجورهم وفسادهم ولهذا قال
(فانتظروا إني معكم من المنتظرين)
وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ صَرَاءٍ مَّسْتَهُمِ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ
فِي

آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ

{ 21 } هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي
الْفُلِّ

وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ
وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا
اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ
الشَّاكِرِينَ {22}

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم
كالرخاء بعد الشدة والخصب بعد الجذب والمطر بعد
القحط ونحو ذلك (إذا لهم مكر في آياتنا) قال مجاهد
إستهزاء وتكذيب كقوله (وإذا مس الإنسان الضر دعانا
لجنبه أو قاعداً أو قائماً) الآية وفي الصحيح أن رسول الله

صلى  بهم الصبح على أثر سماء كانت من الليل أي مطر
ثم قال هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة قالوا الله ورسوله
أعلم قال قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من
قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر

بالكوكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي
مؤمن بالكوكب وقوله (قل الله أسرع مكرا) أي أشد
استدراجا وإمهالا حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس
بمعذب وإنما هو في مهلة ثم يؤخذ على غرة منه والكاتبون
الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله ويحصونه عليه ثم
يعرضونه على عالم الغيب والشهادة فيجازه على الجليل
والحقير النقيير والقمطير ثم أخبر تعالى أنه (هو الذي
يسيركم في البر والبحر) أي يحفظكم ويكلؤكم بحراسته
(حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها
(أي بسرعة سيرهم رافقين فبينما هم كذلك إذ (جاءتھا)
أي تلك السفن (ریح عاصف) أي شديدة (وجاءهم الموج
من كل مكان) أي اغتلم البحر عليهم (وظنوا أنهم أحيط
بهم) أي هلكوا (دعوا الله مخلصين له الدين) أي لا يدعون
معه صنما ولا وثنا بل يفردون بالدعاء والإبتهاال كقوله
تعالى (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه
فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا) وقال
ها هنا (دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه)

أي هذه الحال (لنكونن من الشاكرين) أي لا نشرك بك
أحدا ولنفردنك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء ها هنا
قال الله تعالى (فلما أنجاهم) أي من تلك الورطة (إذا هم
يبغون في الأرض بغير الحق) أي كأن لم يكن من ذلك
شيء (كأن لم يدعنا إلى ضر مسه) ثم قال تعالى (يا أيها
الناس إنما بغيكم على أنفسكم) أي إنما يذوق وبال هذا
البغي أنتم أنفسكم ولا تضرون به أحدا غيركم كما جاء في
الحديث ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا
مع ما يدخر الله لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة
الرحم وقوله (متاع الحياة الدنيا) أي إنما لكم متاع في
الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة (ثم إلينا مرجعكم) أي
مصيركم ومآلكم (فننبئكم) أي فنخبركم بجميع أعمالكم
ونوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير
ذلك فلا يلومن إلا نفسه

فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ

الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ {23}

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ
نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ
زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا
أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَعْنِ
بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ { 24 } وَاللَّهُ
يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
{25}

ضرب تبارك وتعالى مثلا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها
وسرعة انقضائها وزوالها بالنبات الذي أخرجه الله من
الأرض بماء أنزل من السماء مما يأكل الناس من زروع
وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها وما تأكل الأنعام من
أب وقضب وغير ذلك (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها) أي
زينتها الفانية (وازينت) أي حسنت بما خرج في رباها من
زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان (وظن أهلها) الذين
زرعوها وغرسوها (أنهم قادرون عليها) أي على جذاذها
وحصادها فبينما هم كذلك إذ جاءت صاعقة أو ريح شديدة

باردة فأبيست أوراقها وأتلفت ثمارها ولهذا قال تعالى
(أتأها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا) أي يابسا بعد
الخشرة والنضارة (كأن لم تغن بالأمس) أي كأنها ما كانت
حينما قبل ذلك وقال قتادة كأن لم تغن كأن لم تنعم وهكذا
الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن ولهذا جاء في الحديث يؤتى
بأنعم أهل الدنيا فيغمس في النار غمسة فيقال له هل
رأيت خيرا قط هل مر بك نعيم قط فيقول لا ويؤتى بأشد
الناس عذابا في الدنيا فيغمس في النعيم غمسة ثم يقال
له هل رأيت بؤسا قط فيقول لا وقال تعالى إخبارا عن
المهلكين (فأصبحوا في دارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها)
ثم قال تعالى (كذلك نفصل الآيات) أي نبين الحجج والأدلة
(لقوم يتفكرون) فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا عن
أهلها سريعا مع اغترارهم بها وتمكنهم وثقتهم بمواعيدها
وتفلتها عنهم فإن من طبعها الهرب ممن طلبها والطلب
لمن هرب منها وقد ضرب الله تعالى مثل الدنيا بنبات
الأرض في غير ما آية من كتابه العزيز فقال في سورة
الكهف (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من

السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيمًا تذرّوه الرياح
وكان الله على كل شيء مقتدرًا) وكذا في سورة الزمر
والحديد يضرب الله بذلك مثل الحياة الدنيا وقال بن جرير
حدثني الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا بن عيينة عن عمرو
بن دينار عن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن
الحارث بن هشام قال سمعت مروان يعني بن الحكم يقرأ
على المنبر وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها وما كان
الله ليهلكهم إلا بذنوب أهلها قال قد قرأتها وليست في
المصحف فقال عباس بن عبد الله بن عباس هكذا يقرأها
بن عباس فارسلوا إلى بن عباس فقال هكذا أقرأني أبي
بن كعب وهذه قراءة غريبة وكأنها زيدت للتفسير وقوله
تعالى (والله يدعو إلى دار السلام) الآية لما ذكر تعالى
الدنيا وسرعة زوالها رغب في الجنة ودعا إليها وسماها دار
السلام أي من الآفات والنقائص والنكبات فقال (والله
يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)
قال أيوب عن أبي قلابة عن النبي ﷺ قال قيل لي لتنم

عينك وليعقل قلبك ولتسمع أذنك فنامت عيني وعقل قلبي
وسمعت أذني ثم قيل لي مثلي ومثل ماجئت كمثل سيد
بنى دارا ثم صنع مأدبة وأرسل داعيا فمن أجاب الداعي
دخل الدار

وأكل من المأدبة ورضي عنه السيد ومن لم يجب الداعي
لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة ولم يرض عنه السيد
والله السيد والدار الاسلام والمأدبة الجنة والداعي محمد

وهذا حديث مرسل وقد جاء متصلا من حديث الليث عن صحيح ابن ماجه
خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن جابر بن عبد الله
رضي الله عنه قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال إني
رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي
يقول أحدهما لصاحبه اضرب له مثلا فقال اسمع سمعت
أذنك واعقل عقل قلبك إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك
اتخذ دارا ثم بنى فيها بيتا ثم جعل فيها مأدبة ثم بعث رسولا
يدعو الناس إلى طعامه فمنهم من أجاب الرسول ومنهم
من تركه فالله الملك والدار الإسلام والبيت الجنة وأنت

يامحمد الرسول فمن أجابك دخل الإسلام ومن دخل
الإسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل منها رواه بن جرير
وقال قتادة حدثني خلود العصري عن أبي الدرداء مرفوعا
قال قال رسول الله ﷺ ما من يوم طلعت فيه الشمس إلا
وبجنيها ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين يا
أيها الناس هلموا إلى ربكم إن ما قل وكفى خير مما كثر
وألهى قال وأنزل في قوله يا أيها الناس هلموا إلى ربكم
(والله يدعو إلى دار السلام) الآية رواه بن أبي حاتم وبن
جرير

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ
وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {26}

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل
الصالح الحسنى في الدار الآخرة كقوله تعالى (هل جزاء
الإحسان إلا الإحسان) وقوله (وزيادة) هي تضعيف ثواب
الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة
على ذلك أيضا ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من

القصور والحدور والرذا عنهم وما أخفاه لهم من قرة أعين وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم فانه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم بل بفضله ورحمته وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وسعيد بن المسيب وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعبد الرحمن بن سابط ومجاهد وعكرمة وعامر بن سعد وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم من السلف والخلف وقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد 4333 حدثنا عفان أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وقال إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون وما هو ألم يثقل موازيننا ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة

ويجرنا من النار قال فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم وهكذا رواه مسلم 181 وجماعة من الأئمة من حديث حماد بن سلمة به وقال بن جرير حدثني يونس قال أخبرنا بن وهب قال أخبرني شبيب عن أبان عن أبي تميم الهجيمي أنه سمع أبا موسى الأشعري يحدث عن رسول الله ﷺ إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي يا أهل الجنة بصوت يسمع أولهم وآخرهم إن الله وعدكم الحسنَى وزيادة فالحسنَى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الرحمن عز وجل ورواه أيضا بن أبي حاتم من حديث أبي بكر الهذلي عن أبي تميم الهجيمي به وقال بن جرير أيضا حدثنا بن حميد حدثنا إبراهيم بن المختار عن بن جريج عن عطاء عن كعب بن عجرة عن النبي ﷺ في قوله (للمذين أحسنوا الحسنَى وزيادة) قال النظر إلى وجه الرحمن عز وجل وقال أيضا حدثنا بن عبد الرحيم حدثنا عمر بن أبي سلمة سمعت زهيراً عن سمع أبا العالية حدثنا أبي بن كعب أنه

سأل رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل ورواه بن أبي حاتم أيضا من حديث زهير به وقوله تعالى (ولا يرهق وجوههم قتر) أي قتام وسواد في عرصات المحشر كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة من القتر والغبرة (ولا ذلة) أي هوان وصغار أي لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر بل هم كما قال

تعالى في حقهم (فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا) أي نضرة في وجوههم وسرورا في قلوبهم جعلنا الله منهم بفضله ورحمته آمين
وَالَّذِينَ

كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءَ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرَهَّقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا

أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {27}

لما أخبر تعالى عن حال السعداءالذين يضاعف لهم الحسنات ويزدادون على ذلك عطف بذكر حال الأشقياء فذكر تعالى عدله فيهم وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها لا يزيدهم على ذلك (وترهقهم) أي تعتربهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها كما قال (وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل) الآية وقال تعالى (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رؤوسهم) الآيات وقوله (ما لهم من الله من عاصم) أي مانع ولا واق يقيهم العذاب كقوله تعالى (يقول الإنسان يومئذ أين المفر كلا لاوزر إلى ربك يومئذ المستقر) وقوله (كأنما أغشيت وجوههم) الآية إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة كقوله تعالى (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون) وقوله تعالى (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ

عليها غبرة (الآية

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ

جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ
فَزَيَّلْنَا

بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ {28} فَكَفَى بِاللَّهِ

شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ {29}

هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ

الْحَقُّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ {30}

يقول تعالى (ويوم نحشرهم) أي أهل الأرض كلهم من جن

وإنس وبر وفاجر كقوله (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا)

(ثم نقول للذين أشركوا) الآية أي الزموا أنتم وهم مكانا

معينا امتازوا فيه عن مقام المؤمنين كقوله تعالى

(وامتازوا اليوم أيها المجرمون) وقوله (ويوم تقوم

الساعة يومئذ يتفرقون) وفي الآية الأخرى (يومئذ

يصدعون) أي يصيرون صدعين وهذا يكون إذا جاء الرب

تبارك وتعالى لفصل القضاء ولهذا قيل ذلك يستشفع

المؤمنون إلى الله تعالى أن يأتي لفصل القضاء ويريحنا

من مقامنا هذا وفي الحديث الآخر نحن يوم القيامة على
كوم فوق الناس وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة
إخبارا عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة
(مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم) الآية أنهم أنكروا
عبادتهم وتبرءوا منهم كقوله (كلا سيكفرون بعبادتهم) الآية
وقوله (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا) وقوله (ومن
أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم
القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم
أعداء) الآية وقوله في هذه الآية إخبارا عن قول الشركاء
فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم بعبادتهم (فكفى بالله
شهيدا بيننا وبينكم) الآية أي ما كنا نشعر بها ولا نعلم بها
وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم والله شهيد بيننا
وبينكم أنا مادعونكم إلى عبادتنا ولا أمرناكم بها ولا رضينا
منكم بذلك وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا
مع الله غيره ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئا
ولم يأمرهم بذلك ولا رضي به ولا أراد به بل تبرأ منهم وقت
أحوج ما يكونون إليه وقد تركوا عبادة الحي القيوم السميع

البصير القادر على كل شيء العليم بكل شيء وقد أرسل رسله وأنزل كتبه أمرا بعبادته وحده لا شريك له ناهيا عن عبادة ما سواه كما قال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة

وقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) والمشركون أنواع وأقسام كثيرون قد ذكرهم الله في كتابه وبين أحوالهم وأقوالهم ورد عليهم فيما هم فيه أتم رد وقوله تعالى (هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت) أي في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما سلف من عملها من خير وشر كقوله تعالى (يوم تبلى السرائر) وقال تعالى (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) وقال تعالى (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) وقد قرأ بعضهم (هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت) وفسرها بعضهم بالقراءة وفسرها

بعضهم بمعنى تتبع ما قدمت من خير وشر وفسرها بعضهم
بحديث لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فيتبع من كان يعبد
الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ويتبع من
كان يعبد الطواغيت الطواغيت الحديث وقوله (وردوا إلى
الله مولاهم الحق) أي ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم
العدل ففصلها وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار
(وضل عنهم) أي ذهب عن المشركين (ماكانوا يفترون)
أي ماكانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه
قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ

مَنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ
الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ
فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ { 31 } فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ
الْحَقُّ

فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ { 32 } كَذَلِكَ
حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ { 33 }
يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته
على وحدانية إلهيته فقال تعالى (قل من يرزقكم من

السماء والأرض) أي من ذا الذي ينزل من السماء ماء
المطر فيشق الأرض شقا بقدرته ومشيبته فيخرج منها حبا
(وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكها وأبا) (إليه
مع الله) (فسيقولون الله) (أمن هذا الذي يرزقكم إن
أمسك رزقه) وقوله (أمن يملك السمع والأبصار) أي الذي
وهبكم هذه القوة السامعة والقوة الباصرة ولو شاء لذهب
بها ولسلبكم إياها كقوله تعالى (قل هو الذي أنشأكم وجعل
لكم السمع والأبصار) الآية وقال (قل أرأيتم إن أخذ الله
سمعكم وأبصاركم) الآية وقوله (ومن يخرج الحي من
الميت ويخرج الميت من الحي) أي بقدرته العظيمة ومنته
العميمة وقد تقدم ذكر الخلاف في ذلك وأن الآية عامة
لذلك كله وقوله (ومن يدبر الأمر) أي من بيده ملكوت كل
شيء وهو يجير ولا يجار عليه وهو المتصرف الحاكم الذي
لامعقب لحكمه ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) يسأله
من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن) فالملك
كله العلوي والسفلي وما فيهما من ملائكة وإنس وجان
فقيرون إليه عبيد له خاضعون لديه) فسيقولون الله) أي

وهم يعلمون ذلك ويعترفون به (فقل أفلا تتقون) أي أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم وقوله (فذلکم الله ربکم الحق) الآية أي فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة (فماذا بعد الحق إلا الضلال) أي فكل معبود سواه باطل لا إله إلا هو واحد لا شريك له (فأنى تصرفون) أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء والمتصرف في كل شيء وقوله (كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا) الآية أي كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف في الملك وحده الذي بعث رسله بتوحيده فلماذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار كقوله (قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين)

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْى تُؤْفَكُونَ { 34 } قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي

إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ
أَنْ

يَتَّبِعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ {35}
وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ
اللَّهَ

عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ {36}

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره وعبدوا من
الأصنام والأنداد (قل هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم
يعيده) أي من بدأ خلق هذه السماوات والأرض ثم ينشئ
ما فيهما من الخلائق ويفرق أجرام السماوات والأرض
ويبدلها بفناء ما فيهما ثم يعيد الخلق خلقا جديدا (قل
الله) هو الذي يفعل هذا ويستقل به وحده لا شريك له
(فأنى تؤفكون) أي فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى
الباطل (قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله
يهدي للحق) أي أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على
هداية ضال وإنما يهدي الحيارى والضلال ويقلب القلوب
من الغي إلى الرشد الله الذي لإله إلا هو (أفمن يهدي إلى

الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي) أي أفتبع العبد الذي يهدي إلى الحق ويبصر بعد العمى أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدى لعماه وبكمه كما قال تعالى إخبارا عن إبراهيم أنه قال (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا) وقال لقومه (أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون) إلى غير ذلك من الآيات وقوله (فما لكم كيف تحكمون) أي فما بالكم أن يذهب بعقولكم كيف سويتم بين الله وبين خلقه وعدلتم هذا بهذا وعبدتم هذا وهذا وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلا ولا برهانا وإنما هو ظن منهم أي توهم وتخيل وذلك لا يغني عنهم شيئا (إن الله عليم بما يفعلون) تهديد لهم ووعد شديد لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء
وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَأَرْبَبَ

فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ {37} أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا
بِسُورَةٍ

مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }
{38}

بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ {39}
وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
بِالْمُفْسِدِينَ {40}

هذا بيان لإعجاز القرآن وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله
ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله لأنه بفصاحته وبلاغته
ووجازته وحلاوته واشتماله على المعاني العزيزة والغريزة
النافعة في الدنيا والآخرة لا تكون إلا من عند الله الذي لا
يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وأقواله
فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين ولهذا قال تعالى (وما كان
هذا القرآن أن يفترى من دون الله) أي مثل هذا القرآن لا
يكون إلا من عند الله ولا يشبه هذا كلام البشر (ولكن
تصديق الذي بين يديه) أي من الكتب المتقدمة ومهيمننا

عليه ومبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل
وقوله (وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) أي
وبيان الأحكام والحلال والحرام بيانا شافيا كافيا حقا لامرية
فيه من الله رب العالمين كما تقدم في حديث الحارث
الأعور عن علي بن أبي طالب فيه خبر ما قبلكم ونبأ
مابعدكم وفصل ما بينكم أي خبر عما سلف وعما سيأتي
وحكم فيما بين الناس بالشرع الذي يحبه الله ويرضاه
وقوله (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من
استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) أي إن إدعيتم
وافتريتم وشككتم في أن هذا من عند الله وقلتم كذبا ومينا
إن هذا من عند محمد فمحمد بشر مثلكم وقد جاء فيما
زعمتم بهذا القرآن فأتوا أنتم بسورة مثله أي من جنس هذا
القرآن واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس
وجان وهذا هو المقام الثالث في التحدي فإنه تعالى
تحدهم ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند
محمد فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده وليستعينوا بمن
شاءوا وأخبر أنهم لا يقدرون على ذلك ولا سبيل لهم إليه

فقال تعالى (قل لئن إجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا
بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض
ظهيرا) ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال في أول
سورة هود (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله
مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم
صادقين) ثم تنازل إلى سورة فقال في هذه السورة (أم
يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم
من دون الله إن كنتم صادقين) وكذا في سورة البقرة
وهي مدنية تحداهم بسورة منه وأخبر أنهم لا يستطيعون
ذلك أبدا فقال (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار)
الآية هذا وقد كانت الفصاحة من سجايهم وأشعارهم
ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب ولكن جاءهم من
الله ما لا قبل لأحد به ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف
من بلاغة هذا الكلام وحلاوته وجزالته وطلاوته وإفادته
وبراعته فكانوا أعلم الناس به وأفهمهم له وأتبعهم له
وأشدهم له انقيادا كما عرف السحرة بعلمهم بفنون
السحر أن هذا الذي فعله موسى عليه السلام لا يصدر إلا

عن مؤيد مسدد مرسل من الله وأن هذا لا يستطاع لبشر
إلا بإذن الله وكذلك عيسى عليه السلام بعث في زمان
علماء الطب ومعالجة المرضى فكان يبريء الأكمه
والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ومثل هذا لامدخل للعلاج
والدواء فيه فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله
ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال ما من
نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله
البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن
أكون أكثرهم تابعا وقوله (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه
ولما يأتيهم تأويله) يقول بل كذب هؤلاء بالقرآن ولم يفهموه
ولا عرفوه (ولما يأتيهم تأويله) أي ولم يحصلوا ما فيه من
الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلا وسفها (كذلك
كذب الذين من قبلهم) أي من الأمم السالفة (فانظر كيف
كان عاقبة الظالمين) أي فانظر كيف أهلكتناهم بتكذيبهم
رسلنا ظلما وعلوا وكفرا وعنادا وجهلا فاحذروا أيها
المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم وقوله (ومنهم من يؤمن

به) الآية أي ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يامحمد من يؤمن
بهذا القرآن ويتبعك وينتفع بما أرسلت به (ومنهم من لا
يؤمن به) بل يموت على ذلك ويبعث عليه (وربك أعلم
بالمفسدين) أي وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ومن
يستحق الضلالة فيضلّه وهو العادل الذي لا يجور بل يعطي
كلا ما يستحقه تبارك وتعالى وتقدس وتنزه لإله إلا هو
وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ

أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ { 41 } وَمِنْهُمْ
مَنْ

يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ {42}
وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا
لَا يُبْصِرُونَ { 43 } إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ

النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ {44} يقول تعالى لنبيه ﷺ وإن
كذبك هؤلاء المشركون فتبرأ منهم ومن عملهم (فقل لي
عملي ولكم عملكم) كقوله تعالى (قل يا أيها الكافرون لا
أعبد ما تعبدون) إلى آخرها وقال إبراهيم الخليل وأتباعه
لقومهم المشركين (إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون

الله) الآية وقوله (ومنهم من يستمعون إليك) أي يسمعون كلامك الحسن والقرآن العظيم والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة في القلوب والأديان والأبدان وفي هذا كفاية عظيمة ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم فإنك لا تقدر على إسماع الأصم وهو الأطرش فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله (ومنهم من ينظر إليك) أي ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التؤدة والسمت الحسن والخلق العظيم والدلالة الظاهرة على نبوتك لأولي البصائر والنهى وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الإحتقار (وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا) الآية ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحدا شيئاً وإن كان قد هدى به من هدى وبصر به من العمى وفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا وأضل به عن الإيمان آخرين فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء الذي لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون لعلمه وحكمته وعدله ولهذا قال تعالى (إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن

الناس أنفسهم يظلمون) وفي الحديث عن أبي ذر عن
النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل يا عبادي إني حرمت
الظلم على نفسي وجعلته بينكم

محرمًا فلا تظالموا إلى أن قال في آخره يا عبادي إنما هي
أعمالكم أحصيتها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا
فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه رواه

مسلم 2577 بطوله

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا

سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ
اللَّهِ

وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ {45}

يقول تعالى مذكرا للناس قيام الساعة وحشرهم من
أجداثهم إلى عرصات القيامة (ويوم يحشرهم) الآية كقوله
(كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار)
وكقوله (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها)
وقال تعالى (يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ

زرقا يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما) وقال تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) الآيتين وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة كقوله (قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسئل العادين قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون) وقوله (يتعارفون بينهم) أي يعرف الأبناء الآباء والقربات بعضهم لبعض كما كانوا في الدنيا ولكن كل مشغول بنفسه (فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم) الآية وقال تعالى (ولا يسأل حميم حميما) الآيات وقوله (قد خسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين) كقوله تعالى (ويل للمكذبين) لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين ولا خسارة أعظم من خسارة من فرق بينه وبين أحبته يوم

الحسرة والندامة

وَإِذَا نُزِّلَتْ عَلَيْكَ آيَاتٌ مِّنْهُ فَتْلَعْهَا مِلًّا مِّمَّا تَتْلُو ۖ وَلِكُلِّ

فَالْيَتِيمِ الْإِنشَاءُ لِلَّهِ تُحْمَلُونَ ثُمَّ اللَّهُ يُعْطِيهِمْ مَّا يَشَاءُونَ وَلَهُ يَرْجِعُونَ { 46 } وَلِكُلِّ

أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ {47}

يقول تعالى مخاطبا لرسوله ﷺ (وإما نرينك بعض الذي
نعدهم) أي ننتقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم (أو
نتوفينك فإلينا مرجعهم) أي مصيرهم ومنقلبهم والله شهيد
على أفعالهم بعدك وقد قال الطبراني 3055 حدثنا عبد الله
بن أحمد حدثنا عقبة بن مكرم حدثنا أبو بكر الحنفي حدثنا
داود بن الجارود عن أبي السليل عن حذيفة بن أسيد عن
النبي ﷺ قال عرضت علي أمتي البارحة لدى هذه الحجرة
أولها وآخرها فقال رجل يا رسول الله عرض عليك من
خلق فكيف من لم يخلق فقال صوروا لي في الطين حتى
أني لأعرف بالإنسان منهم من أحكم بصاحبه ورواه 3054
عن محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن عقبة بن مكرم عن
يونس بن بكير عن زياد بن المنذر عن أبي الطفيل عن
حذيفة بن أسيد به نحوه وقوله (ولكل أمة رسول فإذا جاء
رسولهم) قال مجاهد يعني يوم القيامة (قضى بينهم

بالقسط) الآية كقوله تعالى (وأشرقتم الأرض بنور ربها)
الآية فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسوله وكتاب
أعمالها من خير وشر موضوع شاهد عليهم وحفظتهم من
الملائكة شهود أيضا أمة بعد أمة وهذه الأمة الشريفة وإن
كانت آخر الأمم في الخلق إلا أنها أول الأمم يوم القيامة
يفصل بينهم ويقضى لهم كما جاء في الصحيحين عن
رسول الله ﷺ أنه قال نحن الآخرون السابقون يوم القيامة
المقضى لهم قبل الخلائق فأمتهم إنما حازت قصب السبق
بشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم
الدين

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ

{ 48 } قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ

أُمَّةٍ

أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ }

{ 49 }

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَادًّا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ

الْمُجْرِمُونَ {50} أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلَانَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ
تَسْتَعْجِلُونَ {51} تُمْ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا دُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ
هَلْ تُجْرُونَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ {52}

يقول تعالى مخبرا عن كفر هؤلاء المشركين في
استعجالهم العذاب وسؤالهم عن وقته قبل التعيين مما لا
فائدة لهم فيه كقوله (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها
والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق) أي كائنة
لامحالة وواقعة وإن لم يعلموا وقتها عينا ولهذا أرشد تعالى
رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال (قل لا أملك لنفسي ضرا ولا
نفعاً) الآية أي لا أقول إلا ما علمني ولا أقدر على شيء مما
استأثر به إلا أن يطلعني الله عليه فأنا عبده ورسوله إليكم
وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وأنها كائنة ولم يطلعني على
وقتها ولكن (لكل أمة أجل) أي لكل قرن مدة من العمر
مقدرة فإذا انقضى أجلهم (فلا يستأخرون ساعة ولا
يستقدمون) كقوله (ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها)
الآية ثم أخبر أن عذاب الله سيأتيهم بغتة فقال (قل أرأيتم

أن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا (أي ليلا أو نهارا) ماذا يستعجل
منه المجرمون أثم إذا ما وقع آمنتم به الآن وقد كنتم به
تستعجلون) يعني أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا (ربنا
أبصرنا وسمعنا) الآية وقال تعالى (فلما رأوا بأسنا قالوا
آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم
إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده
وخسر هنالك الكافرون) (ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا
عذاب الخلد) أي يوم القيامة يقال لهم هذا تبيكتا وتقريرا
كقوله (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا هذه النار التي كنتم
بها تكذبون أفسحروا هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا
أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون)
وَيَسْتَنْبِئُونَكَ

أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ {53}
وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا
النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ {54}

يقول تعالى ويستخبرونك (أحق هو) أي المعاد والقيامة من الأجداث بعد صيرورة الأجسام ترابا (قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين) أي ليس صيرورتكم ترابا بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم ف (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم) وفي التغابن (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير) ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يود الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهبا (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضي بينهم بالقسط) أي بالحق (وهم لا يظلمون)

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ
وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ { 55 } هُوَ يُحْيِي

وَيُمِيتُ

وَأِلَيْهِ تُرْجَعُونَ { 56 }

يخبر تعالى أنه مالك السماوات والأرض وأن وعده حق
كائن لا محالة وأنه يحيي ويميت وإليه مرجعهم وأنه القادر
على ذلك العليم بما تفرق من الأجسام وتمزق في سائر
أقطار الأرض والبحار والقفار

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ

مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ

{ 57 } قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا

يَجْمَعُونَ {58}

يقول تعالى ممتنا على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم
على رسوله الكريم (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من
ربكم أي زاجر عن الفواحش (وشفاء لما في الصدور) أي
من الشبه والشكوك وهو إزالة ما فيها من رجس وذنس
وهدى ورحمة أي يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى
وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه كقوله
تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا
يزيد الظالمين إلا خسارا) وقوله (قل هو للذين آمنوا هدى
وشفاء) الآية وقوله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك

فليفرحوا) أي بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا فإنه أولى ما يفرحون به (هو خير مما يجمعون) أي من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لامحالة كما قال بن أبي حاتم في تفسير هذه الآية وذكر بسنده عن بقية بن الوليد عن صفوان بن عمرو سمعت أيفع بن عبد الكلاعي يقول لما قدم خراج العراق إلى عمر رضي الله عنه خرج عمر ومولى له فجعل عمر يعد الإبل فإذا هي أكثر من ذلك فجعل عمر يقول الحمد لله تعالى ويقول مولاه هذا والله من فضل الله ورحمته فقال عمر كذبت ليس هذا هو الذي يقول الله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته) الآية وهذا مما يجمعون وقد أسنده الحافظ أبو القاسم الطبراني فرواه عن أبي زرعة الدمشقي عن

حيوة بن شريح عن بقية فذكره

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ

فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ أَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ

تَفْتَرُونَ { 59 } أَوْ مَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ

قال بن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم نزلت إنكارا على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصايل كقوله تعالى (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا) (الآيات وقال الإمام أحمد 3473 حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي إسحاق سمعت أبا الأحوص وهو عوف بن مالك بن نضلة يحدث عن أبيه قال أتيت رسول الله ﷺ وأنا رث الهيئة فقال هل لك مال قلت نعم قال من أي المال قال قلت من كل المال من الإبل والرقيق والخيول والغنم فقال إذا آتاك الله مالا فلير عليك قال هل تنتج إبلك صحاحا آذانها فتعمد إلى موسى فتقطع آذانها فتقول هذه بحر وتشق جلودها وتقول هذه صرم وتحرمها عليك وعلى أهلك قال نعم قال فإن ما آتاك الله لك حل ساعد الله أشد من ساعدك وموسى الله أحد من موساك وذكر تمام الحديث ثم رواه 4136 عن سفيان بن عيينة عن أبي الزعراء عمرو

بن عمرو عن عمه أبي الأحوص و 3473 عن بهز بن أسد عن حماد بن سلمة عن عبد الملك بن عمير عن أبي الأحوص به وهذا حديث جيد قوي الإسناد وقد أنكر الله تعالى على من حرم ما أحل الله أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء التي لامستند لها ولا دليل عليها ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة فقال (وماظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة) أي ماظنهم إن يصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة وقوله (إن الله لذو فضل على الناس) قال بن جرير في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا قلت ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم (ولكن أكثرهم لا يشكرون) بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم ويضيقون على أنفسهم فيجعلون بعضا حلالا وبعضا حراما وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم وقال بن أبي حاتم في تفسير هذه الآية حدثنا أبي حدثنا أحمد بن أبي الحواري حدثنا رباح حدثنا عبد

الله بن سليمان حدثنا موسى بن الصباح في قوله عز وجل
(إن الله لذو فضل على الناس) قال إذا كان يوم القيامة
يؤتى بأهل ولاية الله عز وجل فيقومون بين يدي الله عز
وجل ثلاثة أصناف فيؤتى برجل من الصنف الأول فيقول
عبي لماذا عملت فيقول يارب خلقت الجنة وأشجارها
وثمارها وأنهارها وحورها ونعيمها وما أعددت لأهل طاعتك
فيها فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري شوقا إليها قال فيقول
الله تعالى عبي إنما عملت للجنة هذه الجنة فادخلها ومن
فضلي عليك قد أعتقتك من النار ومن فضلي عليك أن
أدخلك جنتي فيدخل هو ومن معه الجنة قال ثم يؤتى برجل
من الصنف الثاني فيقول عبي لماذا عملت فيقول يارب
خلقت نارا وخلقت أغلالها وسعيرها وسمومها ويحمومها
وما أعددت لأعدائك وأهل معصيتك فيها فأسهرت ليلي
وأظمأت نهاري خوفا منها فيقول عبي إنما عملت ذلك
خوفا من ناري فإني قد أعتقتك من النار ومن فضلي عليك
أن أدخلك جنتي فيدخل هو ومن معه الجنة ثم يؤتى برجل
من الصنف الثالث فيقول عبي لماذا عملت فيقول رب

حبا لك وشوقا إليك وعزتك لقد أسهرت ليلي وأظلمات
نهاري شوقا إليك وحبا لك فيقول تبارك وتعالى عبدي إنما
عملت حبا لي وشوقا إلي فيتجلى له الرب جل جلاله
ويقول ها أنا ذا فانظر إلي ثم يقول من فضلي عليك أن
أعتقك من النار وأبيحك جنتي وأزيرك ملائكتي وأسلم عليك
بنفسي فيدخل هو ومن معه الجنة

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ

وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ

فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي

السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ {61}

يخبر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته
وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة وأنه لا يعزب
عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في
السموات ولا في الأرض ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في
كتاب مبين كقوله (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو
ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا

حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب
مبين) فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من
الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله (وما من دابة
في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم الآية
وقال تعالى وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها)
الآية وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء فكيف علمه
بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة كما قال تعالى
(وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم وتقلبك
في الساجدين) ولهذا قال تعالى (وما تكون في شأن وما
تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم
شهودا إذ تفيضون فيه) أي إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن
مشاهدون لكم راءون سامعون ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لما سأله
جبريل عن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن

تراه فإنه يراك

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَأَخَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

{62} الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ {63} لَهُمُ الْبُشْرَى

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ
ذَلِكَ هُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ {64}

يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون كما
فسرهم بهم فكل من كان تقيا كان لله وليا ف (لا خوف
عليهم) أي فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة (ولا هم
يحزنون) على ما وراءهم في الدنيا وقال عبد الله بن
مسعود وابن عباس وغير واحد من السلف أولياء الله الذين
إذا رؤوا ذكر الله وقد ورد هذا في حديث مرفوع كما قال
البخاري 3626 حدثنا علي بن حرب الرازي حدثنا محمد بن
سعيد بن سابق حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعري وهو
القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن بن
عباس قال قال رجل يا رسول الله من أولياء الله قال
الذين إذا رؤوا ذكر الله ثم قال البخاري وقد روي عن سعيد
مرسلا وقال بن جرير حدثنا أبو هشام الرفاعي حدثنا أبو
فضيل حدثنا أبي عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن
عمرو بن جرير البجلي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال

قال رسول الله ﷺ إن من عباد الله عبادا يغبطهم الأنبياء والشهداء قيل من هم يا رسول الله لعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب وجوههم نور على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس ثم قرأ (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ثم رواه 11132 أيضا أبو داود 3527 من حديث جرير عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن عمرو بن جرير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ بمثله وهذا أيضا إسناد جيد إلا أنه منقطع بين أبي زرعة وعمر بن الخطاب والله أعلم وفي حديث الإمام أحمد 5343 عن أبي النضر عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن أبي مالك الأشعري

قال رسول الله ﷺ يأتيهم أفلاء اللس ونواز القبائل قوم لم تتصل بينهم أرحام متقاربة تحابوا في الله وتصافوا في الله يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم عليها يفرع الناس ولا يفرعون وهم أولياء الله

الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون والحديث مطول وقال
الإمام أحمد 6445 حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن
الأعمش عن ذكوان بن أبي صالح عن رجل عن أبي الدرداء
رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله (لهم البشرى في
الحياة الدنيا وفي الآخرة) قال الرؤيا الصالحة يراها
المسلم أو ترى له
وقال بن جرير حدثني أبو السائب حدثنا أبو معاوية عن
الأعمش عن أبي صالح عن عطاء بن يسار عن رجل من
أهل مصر عن أبي الدرداء في قوله (لهم البشرى في
الحياة الدنيا وفي الآخرة) قال سألت رجل أبا الدرداء عن
هذه الآية فقال لقد سألت عن شيء ما سمعت أحدا سأل
عنه بعد رجل سأل عنه رسول الله ﷺ فقال هي الرؤيا
الصالحة يراها الرجل المسلم أو ترى له بشره في الحياة
الدنيا وبشره في الآخرة الجنة ثم رواه بن جرير عن
سفيان عن بن المنكدر عن عطاء بن يسار عن رجل من
أهل مصر أنه سأل أبا الدرداء عن هذه الآية فذكر نحو ما

تقدم ثم قال بن جرير حدثني المثنى حدثنا حجاج بن منهال
حدثنا حماد بن زيد عن عاصم بن بهدلة عن أبي صالح قال
سمعت أبا الدرداء سئل عن هذه الآية (الذين آمنوا وكانوا
يتقون لهم البشري) فذكر نحوه سواء وقال الإمام أحمد
5315 حدثنا عفان حدثنا أبان حدثنا يحيى عن أبي سلمة عن
عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله ﷺ فقال يا رسول
الله أرأيت قول الله تعالى (لهم البشري في الحياة الدنيا
وفي الآخرة) فقال لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه
أحد من أمتي أو قال أحد قبلك تلك الرؤيا الصالحة يراها
الرجل أو ترى له وكذا رواه أبو داود الطيالسي 583 عن
عمران القطان عن يحيى بن أبي كثير به ورواه الأوزاعي
عن يحيى بن أبي كثير فذكره ورواه علي بن المبارك عن
يحيى عن أبي سلمة قال نبئنا عن عبادة بن الصامت سأل
رسول الله ﷺ عن هذه الآية فذكره وقال بن جرير حدثني
أبو حميد الحمصي حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عمر بن
عمرو بن عبد الأحموسي عن حميد بن عبد الله المزني قال

أتى رجل عبادة بن الصامت فقال آية في كتاب الله أسألك عنها قول الله تعالى (لهم البشرى في الحياة الدنيا) فقال عبادة ما سألتني عنها أحد قبلك سألت عنها نبي الله فقال مثل ذلك ما سألتني عنها أحد قبلك الرؤيا الصالحة يراها العبد المؤمن في المنام أو ترى له ثم رواه من حديث موسى بن عبيدة عن أيوب بن خالد بن صفوان عن عبادة بن الصامت أنه قال لرسول الله ﷺ (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) فقد عرفنا بشرى الآخرة الجنة فما بشرى الدنيا قال الرؤيا الصالحة يراها العبد أو ترى له وهي جزء من أربعة وأربعين جزءا أو سبعين جزءا من النبوة وقال الإمام أحمد أيضا 5156 حدثنا بهز حدثنا حماد حدثنا أبو عمران عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر أنه قال يا رسول الله الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ويثنون عليه به فقال رسول الله ﷺ تملك عاجل بشرى المؤمن رواه مسلم 2642 وقال أحمد أيضا 2219 حدثنا حسن يعني الأشيب حدثنا بن لهيعة حدثنا دراج عن عبد

الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال (لهم البشرى في الحياة الدنيا) قال الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن جزء من تسعة وأربعين جزءا من النبوة فمن رأى ذلك فليخبر بها ومن رأى سوى ذلك فإنما هو من الشيطان ليحزنه فلينفث عن يساره ثلاثا وليكبر ولا يخبر بها أحدا لم يخرجوه وقال بن جرير حدثني يونس أنبأنا بن وهب حدثني عمرو بن الحارث أن دراجا أبا السمح حدثه عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال لهم البشرى في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة وقال أيضا بن جرير حدثني محمد بن أبي حاتم المؤدب حدثنا عمار بن محمد حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) قال في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد أو ترى له وهي في الآخرة الجنة ثم رواه عن أبي كريب عن أبي بكر بن عياش عن أبي حصين عن أبي صالح عن أبي

هريرة أنه قال الرؤيا الحسنة بشرى من الله وهي من
المبشرات هكذا رواه من هذه الطريق موقوفا وقال أيضا
حدثنا أبو كريب حدثنا أبو بكر حدثنا هشام عن بن سيرين
عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ الرؤيا الحسنة هي
البشرى يراها المسلم أو ترى له وقال بن جرير حدثني
أحمد بن حماد الدولابي حدثنا سفيان عن عبيد الله بن أبي
يزيد عن أبيه عن سباع بن ثابت عن أم كريب الكعبية
سمعت رسول الله ﷺ يقول ذهبت النوة وبقيت
المبشرات وهكذا روي عن بن مسعود وأبي هريرة وبن
عباس ومجاهد وعروة بن الزبير ويحيى بن أبي كثير
وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح وغيرهم أنهم فسروا
ذلك بالرؤيا الصالحة وقيل المراد بذلك بشرى الملائكة
للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة كقوله تعالى (إن
الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا
تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن
أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي

أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم) وفي حديث البراء رضي الله عنه أن المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب فقالوا اخرجي أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ورب غير غضبان فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء وأما بشراهم في الآخرة فكما قال تعالى (لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون) وقال تعالى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم)

وقوله (لا تبديل لكلمات الله) أي هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة (ذلك هو

الفوز العظيم)

وَلَا يَخْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ

الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {65} أَلَا إِنَّ لِلَّهِ

مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ

يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا

الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ {66} هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ

اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ

لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ {67}

يقول تعالى لرسوله ﷺ (ولا يحزنك) قول هؤلاء

المشركين واستعن بالله عليهم وتوكل عليه فإن العزة لله

جميعا أي جميعها له ولرسوله وللمؤمنين (هو السميع

العليم) أي السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم ثم أخبر

تعالى أن له ملك السماوات والأرض وأن المشركين

يعبدون الأصنام وهي لا تملك شيئا لا ضرا ولا نفعا ولا دليل

لهم على عبادتها بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم

وتخرصهم وكذبهم وإفكهم ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده

الليل ليسكنوا فيه أي يستريحون فيه من نصبهم وكلامهم

وحركاتهم (والنهار مبصرا) أي مضيئا لمعاشهم وسعيهم

وأسفارهم ومصالحهم (إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون)

أي يسمعون هذه الحجج والأدلة فيعتبرون بها ويستدلون

على عظمة خالقها ومقدرها ومسيرها

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا

سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
إِنْ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا
لَا تَعْلَمُونَ { 68 } قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
لَيُفْلِحُونَ { 69 } مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ
نُذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ {70}

يقول تعالى منكرا على من ادعى أن له ولدا (سبحانه هو الغني) أي تقدس عن ذلك هو الغني عن كل ما سواه وكل شيء فقير إليه (له ما في السماوات وما في الأرض) أي فكيف يكون له ولد مما خلق وكل شيء مملوك له عبد له (إن عندكم من سلطان بهذا) أي ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان (أتقولون على الله ما لا تعلمون) إنكار ووعيد أكيد وتهديد شديد كقوله تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا إن كل من في السماوات والأرض إلا آت الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتية يوم القيامة فردا) ثم توعد

تعالى الكاذبين عليه المفترين ممن زعم أن له ولدا بأنهم لا
يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة فأما في الدنيا فإنهم إذا
استدرجهم وأملى لهم متعهم قليلا (ثم يضطرهم إلى
عذاب غليظ) كما قال تعالى ها هنا (متاع في الدنيا) أي
مدة قريبة (ثم إلينا مرجعهم) أي يوم القيامة (ثم نذيقهم
العذاب الشديد) أي الموجه المؤلم (بما كانوا يكفرون)
أي بسبب كفرهم وافتراءهم وكذبهم على الله فيما ادعوه
من الإفك والزور

وَإِذْ عَلَّمْنَاهُمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ
مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا
أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا
إِلَيَّ وَلَا تَنْظِرُونِ { 71 } فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنِ
أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ { 72 }
فَكَذَّبُوهُ فَتَبَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ
وَاعْرِفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ
{ 73 }

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه (واتل عليهم)
أي أخبرهم واقصص عليهم أي على كفار مكة الذين
يكذبونك ويخالفونك (نبأ نوح) أي خبره مع قومه الذين
كذبوه كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن
آخرهم ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب
أولئك (إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم) أي عظم
عليكم (مقامي) أي فيكم بين أظهركم (وتذكيري) إياكم (
بآيات الله) أي بحججه وبراهينه (فعلى الله توكلت) أي
فإني لا أبالي ولا أكف عنكم سواء عظم عليكم أولا
(فأجمعوا أمركم وشركاءكم) أي فاجتمعوا أنتم
وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن (ثم
لا يكن أمركم عليكم غمة) أي ولا تجعلوا أمركم عليكم
ملتبسا بل أفصلوا حالكم معي فإن كنتم تزعمون أنكم
محقون فاقضوا إلي ولا تنظرون أي ولا تؤخروني ساعة
واحدة أي مهما قدرتم فافعلوا فإني لا أباليكم ولا أخاف
منكم لأنكم لستم على شيء كما قال هود لقومه (إني
أشهد الله واشهدوا أنني بريء مما تشركون من دونه

فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي
وربكم) الآية وقوله (فإن توليتم) أي كذبتهم وأدبرتم عن
الطاعة (فما سألتكم من أجر) أي لم أطلب منكم نصحي
إياكم شيئا (إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من
المسلمين) أي وأنا ممثّل ما أمرت به من الإسلام لله عز
وجل والإسلام هو دين الأنبياء جميعا من أولهم إلى آخرهم
وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهلهم كما قال تعالى
(لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) قال بن عباس سبيلا
وسنة فهذا نوح يقول (وأمرت أن أكون من المسلمين)
وقال تعالى عن إبراهيم الخليل (إذ قال له ربه أسلم قال
أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا
بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم
مسلمون) وقال يوسف (رب قد آتيتني من الملك
وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت
ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين)
وقال موسى (يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن
كنتم مسلمين) وقالت السحرة (ربنا أفرغ علينا صبرا

وتوفنا مسلمين) وقالت بلقيس (رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) وقال تعالى (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا) وقال تعالى (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) وقال خاتم

الربيب عليه السلام ويسد البش عليه السلام (إن الهـ تي ونكـي ومحـلي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) أي من هذه الأمة ولهذا قال في الحديث الثابت عنه نحن معاشر الأنبياء أولاد علات وديننا واحد أي وهو عبادة الله وحده لا شريك له وإن تنوعت شرائعنا وذلك معنى قوله أولادي علات وهم الإخوة من أمهات شتى والأب واحد وقوله تعالى (فكذبوه فنجيناه ومن معه) أي على دينه (في الفلك) وهي السفينة (وجعلناهم خلائف) أي في الأرض (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) أي يا محمد كيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا المكذبين

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ
قُلُوبِ

الْمُعْتَدِينَ {74}

يقول تعالى ثم بعثنا من بعد نوح رسلا إلى قومهم فجاءوهم
بالبينات أي بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما
جاءوهم به (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) أي
فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم بسبب
تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم كقوله تعالى (ونقلب
أفئدتهم وأبصارهم) الآية وقوله (كذلك نطبع على قلوب
المعتدين) أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء فما آمنوا
بسبب تكذيبهم المتقدم هكذا يطبع الله على قلوب من
أشبههم ممن بعدهم ويختم على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى
يروا العذاب الأليم والمراد أن الله تعالى أهلك الأمم
المكذبة للرسل وأنجى من آمن بهم وذلك من بعد نوح عليه
السلام فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم عليه السلام
على الإسلام إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام فبعث الله

إليهم نوحا عليه السلام ولهذا يقول له المؤمنون يوم
القيامة أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض وقال بن
عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام
وقال الله تعالى (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح) الآية
وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا سيد
الرسول وخاتم الأنبياء والمرسلين فإنه إذا كان قد أصاب من
كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العذاب والنكال
فماذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك
ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى

فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ بآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ {75}
فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ {76}
قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ
السَّاحِرُونَ { 77 } قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا
وَتَكُونُ لَكُمْ أَلْكَبْرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ }
{78}

يقول تعالى (ثم بعثنا) من بعد تلك الرسل (موسى
وهارون إلى فرعون وملئه) أي قومه (بآياتنا) أي حججنا

وبراهيننا (فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) أي استكبروا
عن اتباع الحق والإنقياد له وكانوا قوما مجرمين (فلما
جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين) كأنهم
قبحهم الله أقسموا على ذلك وهم يعلمون أن ما قالوه
كذب وبهتان كما قال تعالى (ووجدوا بها واستيقنتها
أنفسهم ظلما وعلوا) الآية (قال) لهم (موسى) منكرا
عليهم (أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح
الساحرون قالوا أجبنا لتلفتنا) أي تشينا (عما وجدنا عليه
آباءنا) أي الدين الذي كانوا عليه (وتكون لكما) أي لك
ولهارون (الكبرياء) أي العظمة والرياسة (في الأرض وما
نحن لكما بمؤمنين) وكثيرا ما يذكر الله تعالى قصة موسى
عليه السلام مع فرعون في كتابه العزيز لأنها من أعجب
القصص فإن فرعون حذر من موسى كل الحذر فسخره
القدر أن ربي هذا الذي يحذر منه على فراشه ومائدته
بمنزلة الولد ثم ترعرع وعقد الله له سببا أخرجه من بين
أظهرهم ورزقه النبوة والرسالة والتكليم وبعثه إليه ليدعوه
إلى الله تعالى ليعبده ويرجع إليه هذا مع ما كان عليه

فرعون من عظمة المملكة والسلطان فجاءه برسالة الله تعالى وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه السلام فتمرد فرعون واستكبر وأخذته الحمية والنفس الخبيثة الأبية وقوى رأسه وتولى بركنه وادعى ما ليس له وتجهرم على الله وعتا وبغى وأهان حزب الإيمان من بني إسرائيل والله تعالى يحفظ رسوله موسى عليه السلام وأخاه هارون ويحوظهما بعنايته ويحرسهما بعينه التي لا تنام ولم تزل المحاجة والمجادلة والآيات تقوم على يدي موسى شيئاً بعد شيء ومرة بعد مرة مما يبهر العقول ويدهش الألباب مما لا يقوم له شيء ولا يأتي به إلا من هو مؤيد من الله (وما تأتيهم من آية إلا هي أكبر من أختها) وصمم فرعون وملؤه قبحهم الله على التكذيب بذلك كله والجحد والعناد والمكابرة حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد وأغرقهم في صيحة واحدة أجمعين (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين)

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ { 79 } فَلَمَّا جَاء
السَّحَرَةُ

قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ {80} فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ
مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّ
عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ {81} وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْمُجْرِمُونَ {82}

ذكر الله سبحانه قصة السحرة مع موسى عليه السلام في
سورة الأعراف وقد تقدم الكلام عليها هناك وفي هذه
السورة وفي سورة طه وفي الشعراء وذلك أن فرعون
لعنه الله أراد أن يتهرج على الناس ويعارض ما جاء به
موسى عليه السلام من الحق المبين بزخارف السحرة
والمشعبذين فانعكس عليه النظام ولم يحصل له من ذلك
المرام وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام
(وألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب
موسى وهارون) فظن فرعون أنه يستنصر بالسحار على
رسول عالم الأسرار فخاب وخسر الجنة واستوجب النار
(وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم فلما جاء السحرة
قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) وإنما قال لهم ذلك
لأنهم لما اصطفوا وقد وعدوا من فرعون بالتقريب

والعطاء الجزيل (قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى قال بل ألقوا) فأراد موسى أن تكون البداية منهم ليرى الناس ما صنعوا ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم ولهذا لما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم (فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إن ما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) فعند ذلك قال موسى لما ألقوا (ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) وقال بن أبي حاتم حدثنا محمد بن عمار بن الحارث حدثنا عبد الرحمن يعني الدشتكي أخبرنا أبو جعفر الرازي عن ليث وهو بن أبي سليم قال بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى تقرأ في إناء فيه ماء ثم يصب على رأس المسحور الآية التي من

(فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته

ولو كره المجرمون) والآية الأخرى (فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون) إلى آخر أربع آيات وقوله (إن ما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى)

فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّتُهُ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ

خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِم أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ

فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ {83}

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات إلا قليل من قوم فرعون من الذرية وهم الشباب على وجل وخوف منه ومن ملئه أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر لأن فرعون لعنه الله كان جبارا عنيدا مسرفا في التمرد والعتو وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعيته منه خوفا شديدا قال العوفي عن بن عباس (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم) قال فإن الذرية التي آمنت لموسى من أناس غير بني إسرائيل من قوم فرعون يسير منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه وروى علي بن أبي

طلحة عن بن عباس في قوله (فما آمن لموسى إلا ذرية
من قومه) يقول بني إسرائيل وعن بن عباس والضحاك
وقتادة الذرية القليل وقال مجاهد في قوله (إلا ذرية من
قومه) قال هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول
الزمان ومات آبائهم واختار بن جرير قول مجاهد في
الذرية أنها من بني إسرائيل

لا من قوم فرعون لعود الضمير على أقرب المذكورين
وفي هذا نظر لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب وأنهم من
بني إسرائيل فالمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا
بموسى عليه السلام واستبشروا به وقد كانوا يعرفون نعتة
وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة وأن الله تعالى
سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه ولهذا لما بلغ
هذا فرعون حذر كل الحذر فلم يجد عنه شيئاً ولما جاء
موسى آذاهم فرعون أشد الأذى و (قالوا أوذينا من قبل أن
تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم
ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) وإذا تقرر هذا
فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى وهم بنو

إسرائيل (على خوف من فرعون وملئهم) أي وأشرف قومهم أن يفتنهم ولم يكن في بني إسرائيل من يخاف منه أن يفتن عن الإيمان سوى قارون فإنه كان من قوم موسى فبغى عليهم لكنه كان طاويا إلى فرعون متصلا به متعلقا بحباله ومن قال إن الضمير في قوله وملئهم عائد إلى فرعون وعظم الملك من أجل اتباعه أو بحذف آل فرعون وإقامة المضاف إليه مقامه فقد أبعد وإن كان بن جرير قد حكاها عن بعض النحاة ومما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن قوله تعالى (وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين)

وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ

أَمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ { 84 } فَقَالُوا عَلَى

اللَّهِ

تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ { 85 } وَتَجَّنَا

بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ { 86 }

يقول تعالى مخبرا عن موسى أنه قال لبني إسرائيل (يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) أي فإن الله كاف من توكل عليه (أليس الله بكاف عبده) (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين العبادة والتوكل كقوله تعالى (فاعبده وتوكل عليه) (قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا) (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة (إياك نعبد وإياك نستعين) وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك (فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) أي لا تظفرهم بنا وتسلطهم علينا فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل فيفتنوا بذلك هكذا روي عن أبي مجلز وأبي الضحى وقال بن أبي نجیح وغيره عن مجاهد لا تعذبنا بأيدي آل فرعون ولا بعذاب من عندك فيقول قوم فرعون لو كانوا على حق ما عذبوا ولا سلطنا عليهم فيفتنوا بنا وقال عبد الرزاق أنبأنا بن عيينة عن بن أبي نجیح عن مجاهد (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين)

لا تسلطهم علينا فيفتنونا وقوله (ونجنا برحمتك) أي خلصنا
برحمة منك وإحسان (من القوم الكافرين) أي الذين
كفروا الحق وستره ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك
وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ

أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ {87}

يذكر تعالى سبب انجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه
وكيفية خلاصهم منهم وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه
هارون عليهما السلام أن يتبوأ أي يتخذا لقومهما بمصر بيوتا
واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى (واجعلوا بيوتكم
قبلة) فقال الثوري وغيره عن خصيف عن عكرمة عن بن
عباس (واجعلوا بيوتكم قبلة) قال أمروا أن يتخذوها
مساجد وقال الثوري أيضا عن بن منصور عن إبراهيم
(واجعلوا بيوتكم قبلة) قال كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا
في بيوتهم وكذا قال مجاهد وأبو مالك والربيع بن أنس
والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وأبوه زيد بن
أسلم وكان هذا والله أعلم لما اشتد بهم البلاء من قبل

فرعون وقومه وضيّقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة) وفي الحديث كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى أخرجه أبو داود 1319 ولهذا قال تعالى في هذه الآية (واجعلوا بيوتكم قبله وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين) أي بالثواب والنصر القريب وقال العوفي عن بن عباس في تفسير هذه الآية قال قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا في بيوتهم وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة وقال مجاهد (واجعلوا بيوتكم قبله) لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يقتلوا في الكنائس الجامعة أمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة يصلون فيها سرا وكذا قال قتادة والضحاك وقال سعيد بن جبير (واجعلوا بيوتكم قبله) أي

بعضها

بعضها

يقابل

وَقَالَ مُوسَى

رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ
وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ {88}
قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمْ فَاَسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ {89}

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملئه لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين ظلما وعلوا وتكبرا وعتوا قال موسى (ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة) أي من آثا الدنيا ومآعها (وأموالا) أي جزيلة كثيرة (في) هذه (الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك) بفتح الياء أي أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم استدراجا منك لهم كقوله تعالى (لنفتنهم فيه) وقرأ آخرون ليضلوا بضم الياء أي ليفتنن بما أعطيتهم من شئت من خلقك ليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم واعتناك بهم (ربنا اطمس على أموالهم) قال بن عباس ومجاهد أي أهلكها وقال الضحاك وابو العالية والربيع بن أنس جعلها الله حجارة منقوشة كهية ما كانت وقال

قتادة بلغنا أن زروعهم تحولت حجارة وقال محمد بن كعب القرظي جعل سكرهم حجارة وقال بن أبي حاتم حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث حدثنا يحيى بن أبي بكير عن أبي معشر حدثني محمد بن قيس أن محمد بن كعب قرأ على عمر بن عبد العزيز حتى بلغ (وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملاه زينة وأمواالا في الحياة الدنيا) إلى قوله (ربنا اطمس على أموالهم) الآية فقال عمر يا أبا حمزة أي شيء الطمس قال عادت أموالهم كلها حجارة فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له ائتني بكيس فجاهه بكيس فإذا فيه حمص وبيض قد حول حجارة وقوله (واشدد على قلوبهم) قال بن عباس أي اطبع عليها (فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضبا لله ولدينه على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا يجيء منهم شيء كما دعا نوح عليه السلام فقال (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) ولهذا استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام فيهم هذه الدعوة التي أمن

عليها أخوه هارون فقال تعالى (قد أجيبت دعوتكما) قال أبو العالية وأبو صالح وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي والربيع بن أنس دعا موسى وأمن هارون أي قد أجبنا كما فيما سألتما من تدمير آل فرعون وقد يحتج بهذه الآية من يقول إن تأمين المأموم على قراءة الفاتحة ينزل منزلة قراءتها لأن موسى دعا وهارون أمن وقال تعالى (قد أجيبت دعوتكما فاستقيما) الآية أي كما أجيبت دعوتكما فاستقيما على أمري قال بن جريج عن بن عباس فاستقيما فامضيا لأمرى وهي الإستقامة قال بن جريج يقولون إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة وقال محمد بن كعب وعلي بن الحسين أربعين يوما

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ

فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ

الْعَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ

وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ {90} آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ

مِنَ الْمُفْسِدِينَ {91} فَالْيَوْمَ تُنْجِيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ

خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا لَعَافِلُونَ {92}

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر صحبة موسى عليه السلام وهم فيما قيل ست مئة ألف مقاتل سوى الذرية وقد كانوا استعاروا من القبط حليا كثيرا فخرجوا به معهم فاشتد حنق فرعون عليهم فأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمه فركب وراءهم في أبهة عظيمة وجيوش هائلة لما يريد الله تعالى بهم ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته فلحقوهم وقت شروق الشمس (فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون) وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر وفرعون وراءهم ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان وألح أصحاب موسى عليه السلام عليه في السؤال كيف المخلص مما نحن فيه فيقول إني أمرت أن أسلكها هنا (كلا إن معي ربي سيهدين) فعندما ضاق الأمر اتسع فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه فضربه فانفلق البحر فكان كل فرق

كالطود العظيم أي كالجبل العظيم وصار اثني عشر طريقا
لكل سبط واحد وأمر الله الريح فنشفت أرضه (فاضرب
لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى)
وتخرق الماء بين الطرق كهيئة الشبايبك ليرى كل قوم
الآخرين لئلا يظنوا أنهم هلكوا وجاوزت بنو إسرائيل البحر
فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من
الناحية الأخرى وهو في مئة ألف أدهم سوى بقية الألوان
فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب وهم بالرجوع وهيهات
ولات حين مناص نفذ القدر واستجبت الدعوة وجاء جبريل
عليه السلام على فرس وديق حائل فمر إلى جانب حصان
فرعون فحمم إليها واقتحم جبريل البحر فاقتحم الحصان
وراءه ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئا فتجلد لأمرائه
وقال لهم ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا فاقتحموا كلهم
عن آخرهم وميكائيل في ساقتهم لا يترك منهم أحدا إلا
ألقه بهم فلما استوسقوا فيه وتكاملوا وهم أولهم
بالخروج منه أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم
فارتطم عليهم فلم ينج منهم أحد وجعلت الأمواج ترفعهم

وتخفضهم وتراكمت الأمواج فوق فرعون وغشيته سكرات الموت فقال وهو كذلك (آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) فأمن حيث لا ينفعه الإيمان (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون) ولهذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال (آلآن وقد عصيت قبل) أي أهدأ الوقت تقول وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه (وكنت من المفسدين) أي في الأرض الذين أضلوا الناس (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون) وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله ذلك من أسرار الغيب التي أعلم الله بها رسوله ﷺ ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله 1309 حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن بن عباس قال قال رسول الله ﷺ لما قال فرعون آمنت أنه لا إله إلا

الذي آمنت به بنو إسرائيل قال قال لي جبريل لو رأيتني وقد أخذت من حال البحر فدسسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة ورواه الترمذي 3107 وابن جرير وابن أبي حاتم في تفاسيرهم من حديث حماد بن سلمة به وقال الترمذي حديث حسن وقال أبو داود الطيالسي 2618 حدثنا شعبة عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن بن عباس قال قال رسول الله ﷺ قال لي جبريل لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة وقد رواه أبو عيسى الترمذي أيضا 3108 وابن جرير أيضا من غير وجه عن شعبة به فذكر مثله وقال الترمذي حسن غريب صحيح ووقع في رواية عند بن جرير عن محمد بن المثنى عن غندر عن شعبة عن عطاء وعدي عن سعيد عن بن عباس رفعه أحدهما فكأن الآخر لم يرفع فالله أعلم وقال بن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفي عن سعيد بن جبير عن بن عباس قال لما أغرق الله

فرعون أشار بأصبعه ورفع صوته (آمنت أنه لا إله إلا الذي
آمنت به بنو إسرائيل) قال فخاف جبريل أن تسبق رحمة
الله فيه غضبه فجعل يأخذ الحال بجناحيه فيضرب به وجهه
فيرمسه وكذا رواه بن جرير عن سفيان بن وكيع عن أبي
خالد به موقوفا وقد روي من حديث أبي هريرة أيضا فقال
بن جرير حدثنا بن حميد حدثنا حكام عن عنبة هو بن أبي
سعيد عن كثير بن زاذان عن أبي حازم عن أبي هريرة
رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ قال لي جبريل يا
محمد لو رأيتني وأنا أغطه وأدس من الحال في فيه مخافة
أن تدركه رحمة الله فيغفر له يعني فرعون كثير بن زاذان
هذا قال بن معين لا أعرفه وقال أبو زرعة وأبو حاتم
مجهول وباقي رجاله ثقات وقد أرسل هذا الحديث جماعة
من السلف قتادة وإبراهيم التيمي وميمون بن مهران ونقل
عن الضحاك بن قيس أنه خطب بهذا للناس فالله أعلم
وقوله (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية) قال بن
عباس وغيره من السلف إن بعض بني إسرائيل شكوا في

موت فرعون فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده سويا
بلا روح وعليه درعه المعروفة على نجوة من الأرض وهو
المكان المرتفع ليتحققوا موته وهلاكه ولهذا قال تعالى (
فاليوم ننجيك) أي نرفعك على نشز من الأرض (ببدنك)
قال مجاهد بجسدك وقال الحسن بجسم لا روح فيه وقال
عبد الله بن شداد سويا صحيحا أي لم يتمزق ليحققوه
ويعرفوه وقال أبو صخر بدرعك وكل هذه الأقوال لا منافاة
بينهما كما تقدم والله أعلم وقوله (لتكون لمن خلفك آية)
أي لتكون لبني إسرائيل دليلا على موتك وهلاكك وأن الله
هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده وأنه لا يقوم لغضبه
شيء ولهذا قرأ بعضهم (لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا
من الناس عن آياتنا لغافلون) أي لا يتعظون بها ولا يعتبرون
بها وقد كان إهلاكهم يوم عشوراء كما قال البخاري 4680
حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن أبي بشر
عن سعيد بن جبير عن بن عباس قال قدم النبي ﷺ المدينة
واليهود تصوم يوم عاشوراء فقال ما هذا اليوم الذي

تصومونه فقالوا هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون

فقال النبي ﷺ لأصحابه أنتم أحق بموسى منهم فصوموه

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ
فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ

فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ {93}

يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية
الدينية وقوله (مبوأ صدق) قيل هو بلاد مصر والشام مما
يلي بيت المقدس ونواحيه فإن الله تعالى لما أهلك فرعون
وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر
بكمالها كما قال الله تعالى (وأورثنا القوم الذين كانوا
يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت
كلمة ربك الحسنی على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما
كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) وقال في
الآية الأخرى (فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام
كريم كذلك وأورثناها بني إسرائيل) وقال (كم تركوا من

جناح وعيون) الآيات ولكن استمروا مع موسى عليه السلام طالين إلى بلاد بيت المقدس وهي بلاد الخليل عليه السلام فاستمر موسى بمن معه طالبا بيت المقدس وكان فيه قوم من العمالقة فنكل بنو إسرائيل عن قتالهم فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة ومات فيه هارون ثم موسى عليهما السلام وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون ففتح الله عليهم بيت المقدس واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بختنصر حينما من الدهر ثم عادت إليهم ثم أخذها ملوك اليونان فكانت أحكامهم مدة طويلة وبعث الله عيسى بن مريم عليه السلام في تلك المدة فاستعانت اليهود قبهم الله على معادة عيسى عليه السلام بملوك اليونان وكانت تحت أحكامهم ووشوا عندهم وأوحوا إليهم أن هذا يفسد عليكم الرعايا فبعثوا من يقبض عليه فرفعه الله إليه وشبه لهم بعض الحوارين بمشيئة الله وقدره فأخذه فصلبوه واعتقدوا أنه هو (وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيمًا) ثم بعد المسيح عليه السلام بنحو ثلاث مئة سنة دخل قسطنطين أحد ملوك

اليونان في دين النصرانية وكان فيلسوفا قبل ذلك فدخل في دين النصارى قيل تقية وقيل حيلة ليفسده فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة بدعوها وأحدثوها فبنى لهم الكنائس والبيع الكبار والصغار والصوامع والهيكل والمعابد والقلايات وانتشر دين النصرانية في ذلك الزمان واشتهر على مافيه من تبديل وتغيير وتحريف ووضع وكذب ومخالفة لدين المسيح ولم يبق على دين المسيح على الحقيقة منهم إلا القليل من الرهبان فاتخذوا لهم الصوامع في البراري والمهامه والقفار واستحوذت يد النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم وبنى هذا الملك المذكور مدينة قسطنطينية والقمامة وبيت لحم وكنائس ببلاد بيت المقدس ومدن حوران كبصرى وغيرها من البلدان بناءات هائلة محكمة وعبدوا الصليب من حينئذ وصلوا إلى الشرق وصوروا الكنائس وأحلوا لحم الخنزير وغير ذلك مما أحدثوه من الفروع في دينهم والأصول ووضعوا له الأمانة الحقيرة التي يسمونها الكبيرة وصنفوا له القوانين وبسط هذا يطول والغرض أن يدهم لم تزل

على هذه البلاد إلى أن انتزعها منهم الصحابة رضي الله عنهم وكان فتح بيت المقدس على يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولله الحمد والمنة وقوله (ورزقناهم من الطيبات) أي الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً وقوله (فما اختلفوا حتى جاءهم العلم) أي ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم أي ولم يكن لهم أن يختلفوا وقد بين الله لهم وأزال عنهم اللبس وقد ورد في الحديث إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة منها واحدة في الجنة وثلثان وسبعون في النار قيل من هم يا رسول الله قال ما أنا عليه وأصحابي رواه الحاكم في مستدرکه 1129 بهذا اللفظ وهو في السنن والمسانيد ولهذا قال الله تعالى (إن ربك يقضي بينهم) أي يفصل بينهم (يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون)

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ

فَأَسْأَلِ الَّذِينَ يَفْقَرُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ { 94 } وَلَا تَكُونَنَّ

مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ

{ 95 } إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ

{ 96 } وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ { 97 }

قال قتادة بن دعامة بلغنا أن رسول الله ﷺ قال لا أشك ولا أسأل وكذا قال بن عباس وسعيد بن جبیر والحسن البصري وهذا فيه تثبيت للأمة وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب كما قال تعالى (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل) الآية ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم ولهذا قال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) أي لا يؤمنون إيماناً ينفعهم بل حين لا ينفع نفساً إيمانها ولهذا لما دعا موسى عليه السلام على فرعون وملئه قال (ربنا

اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) كما قال تعالى (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون) ثم قال تعالى (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين)

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا
آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ
إِلَى حِينٍ {98}

يقول تعالى فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه أو أكثرهم كقوله تعالى (يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون) (وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا

على آثارهم مقتدون) وفي الحديث الصحيح عرض علي الأنبياء فجعل النبي يمر ومعه الفئام من الناس والنبي يمر معه الرجل والنبي معه الرجلان والنبي ليس معه أحد ثم ذكر كثرة أتباع موسى عليه السلام ثم ذكر كثرة أمته صلوات الله وسلامه عليه كثرة سدت الخافقين الشرقي والغربي والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس وهم أهل نينوى وما كان إيمانهم إلا تخوفا من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعد ما عاينوا أسبابه وخرج رسولهم من بين أظهرهم فعندما جأروا إلى الله واستغاثوا به وتضرعوا له واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم فعندما رحمهم الله وكشف عنهم العذاب وأخروا كما قال تعالى (إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) واختلف المفسرون هل كشف عنهم العذاب الأخروي مع الدنيوي أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط على قولين أحدهما إنما كان ذلك في

الحياة الدنيا كما هو مقيد في هذه الآية والثاني فيهما لقوله تعالى (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فأمنوا فمتعناهم إلى حين) فأطلق عليهم الإيمان والإيمان منقذ من العذاب الأخرى وهذا هو الظاهر والله أعلم وقال قتادة في تفسير هذه الآية لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب فتركت إلا قوم يونس لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم قذف الله في قلوبهم التوبة ولبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عجوا إلى الله أربعين ليلة فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم قال قتادة وذكر أن قوم يونس بنينوى أرض الموصل وكذا روي عن بن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف وكان بن مسعود يقرؤها (فهلا كانت قرية آمنت) وقال أبو عمران عن أبي الجلد قال لما نزل بهم العذاب جعل يدور على رؤوسهم كقطع الليل المظلم فمشوا إلى رجل من علمائهم فقالوا علمنا دعاء ندعوا به لعل الله أن يكشف عنا العذاب فقال قولوا يا حي حين لا

حي يا حي محيي الموتى يا حي لا إله إلا أنت قال فكشف
عنهم العذاب وتمام القصة سيأتي مفصلاً في سورة

الصفات إن شاء الله

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ

جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ {99} وَمَا

كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ

عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ {100}

يقول تعالى (ولو شاء ربك) يا محمد لأذن لأهل الأرض
كلهم في الإيمان بما جئتهم به فأمنوا كلهم ولكن له حكمة
فيما يفعله تعالى كقوله تعالى (ولو شاء ربك لجعل الناس
أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك
خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس
أجمعين) وقال تعالى (أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء
الله لهدى الناس جميعاً) ولهذا قال تعالى (أفأنت تكره
الناس) أي تلزمهم وتلجئهم (حتى يكونوا مؤمنين) أي
ليس ذلك عليك ولا إليك بل الله (يضل من يشاء ويهدي
من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) (ليس عليك

هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) (لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين) (إنك لا تهدي من أحببت) (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد الهادي من يشاء المضل لمن يشاء لعلمه وحكمته وعدله ولهذا قال تعالى (وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس) وهو الخبال والضلال (على الذين لا يعقلون) أي حجج الله وأدلته وهو العادل في كل ذلك في هداية من هدى وإضلال من ضل

قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْجِبُ الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ {101}

فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ

قُلْ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ {102} ثُمَّ تُنَجَّى

رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَحِ الْمُؤْمِنِينَ

{103}

يرشد تعالى عباده إلى التفكير في آلائه وما خلق الله في السماوات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الأبواب مما في

السموات من كواكب نيرات ثوابت وسيارات والشمس والقمر والليل والنهار واختلافهما وإيلاج أحدهما في الآخر حتى يطول هذا ويقصر هذا ثم يقصر هذا ويطول هذا وارتفاع السماء واتساعها وحسنها وزينتها وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها وأخرج فيها من أفانين الثمار والزرور والأزاهير وصنوف النبات وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب وما في البحر من العجائب والأمواج وهو مع هذا مسخر مذل للسالكين يحمل سفنهم ويجري بها برفق بتسخير القدير لا إله إلا هو ولا رب سواه وقوله (وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) أي وأي شيء تغني الآيات السماوية والأرضية والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها عن قوم لا يؤمنون كقوله (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون) الآية وقوله (فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم) أي فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النعمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا

من قبلهم من الأمم الماضية المكذبة لرسلمهم (قل
فانتظروا إني معكم من المنتظرين ثم ننجي رسلنا والذين
آمنوا) أي ونهلك المكذبين بالرسلم (كذلك حقا علينا ننجي
المؤمنين) حقا أوجه الله تعالى على نفسه الكريمة كقوله
(كتب ربكم على نفسه الرحمة) وكما جاء في الصحيحين

عن رسول الله ﷺ أي أنه قال إن الله كتب كتابا فهو عنده

فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ

تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم وَأُمِرْتُ

أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ { 104 } وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا

وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ { 105 } وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ

مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ }

{106}

وَإِن يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن

يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَرَّآدًا لِّفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ

وَهُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ {107}

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من صحة ما جئكم به من الدين الحنيف الذي أوحاه الله إلي فأنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله وحده لا شريك له وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم ثم إليه مرجعكم فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقا فأنا لا أعبدها فادعوها فلتضرني فإنها لا تضر ولا تنفع وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له وأمرت أن أكون من المؤمنين وقوله (وأن أقم وجهك للدين حنيفا) الآية أي أخلص العبادة لله وحده حنيفا أي منحرفا عن الشرك ولهذا قال (ولا تكونن من المشركين) وهو معطوف على قوله (وأمرت أن أكون من المؤمنين) وقوله (وإن يمسسك الله بضر) الآية فيه بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه في ذلك أحد فهو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له روى الحافظ بن عساكر في ترجمة صفوان بن سليم من طريق عبد الله بن وهب أخبرني يحيى بن أيوب عن عيسى بن موسى عن صفوان بن سليم عن أنس بن

مالك أن رسول الله ﷺ قال اطلبوا الخير دهركم كله
وتعرضوا لنفحات ربكم فإن لله نفحات من رحمته يصيب
بها من يشاء من عباده واسألوه أن يستر عوراتكم ويؤمن
روعاتكم ثم رواه من طريق الليث عن عيسى بن موسى
عن صفوان عن رجل من أشجع عن أبي هريرة مرفوعا
بمثله سواء وقوله (وهو الغفور الرحيم) أي لمن تاب إليه
وتوكل عليه ولو من أي ذنب كان حتى من الشرك به فإنه
يتوب عليه

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ

ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ { 108 } وَأَتَّبِعْ

مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ }

{109}

يقول تعالى أمر لرسوله ﷺ أن يخبر الناس أن الذي جاءهم
به من عند الله هو الحق الذي لا مرية

فيه ولا شك فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك
الإتباع على نفسه ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه
(وما أنا عليكم بوكيل) أي وما أنا موكل بكم حتى تكونوا
مؤمنين وإنما أنا نذير لكم والهداية على الله تعالى وقوله
(واتبع ما يوحى إليك واصبر) أي تمسك بما أنزل الله عليك
وأوحاه إليك واصبر على مخالفة من خالفك من الناس
(حتى يحكم الله) أي يفتح بينك وبينهم (وهو خير الحاكمين
(أي خير الفاتحين بعدله وحكمته